أين كتب ابن خلدون مقدمته؟

أ.د. ناصر الدين سعيدوني
جامعة الكويت

كثيرا ما يتساءل القارئ العربي عن المكان الذي كتب فيه ابن خلدون مقدمته (سعيدوني، ن. 1999: 212- 223)، إذ أن جل الدراسات الخلدونية لا تعير اهتماما للمكان الذي سجل فيه ابن خلدون أفكاره في التاريخ، كما أن الحظ لم يحالف العديد من المهتمين بالشأن الخلدوني في تحديد موقع قلعة بني سلامة، فالبحاثة محمد عبد الله عنان يحدد موقعها خطأ بجنوب إقليم قسنطينة على نحو مائة ميل من حدود تونس الغربية (عبد الله عنان، م. 1965: 63)، بينما يذكر علي محسن عيسى مال الله في بحثه عن أدب الرحلات أن قرية بني سلامة توجد قرب قرية منداس الواقعة ناحية سرقسطة بالأندلس (محسن عيس مال الله، ع. 1978: 250)، كما أن بعض البرامج التلفزيونية لم تتحر الدقة في تحديد مكانها، فاختلط عليها الأمر بين تونس ودمشق والقاهرة. كل هذا دفعنا إلى تعريف القارئ بقلعة بني سلامة المعروفة بتاوغزوت، حيث سجل ابن خلدون آراءه وحدد مفاهيمه عن طبيعة أحداث التاريخ ومقتضيات الحياة السياسية وشروط النشاط الاقتصادي و العلاقات الاجتماعية.

تقع قلعة بني سلامة المعروفة بتاوغزوت على بعد ستة كيلومترات من مدينة فرندة بالغرب الجزائري. وهي بموقعها هذا تحتل مكانا حصينا على شكل نتوء صخري بالحافة الشرقية لهضبة بلاد سبيبة يعرف حاليا بكاف الحمام (1030م) يشرف على منخفض واد التحت أو حوض فرندة، وإزاء مكان القلعة اليوم يوجد ضريح سيدي خالد وتنتشر عدة مغارات تعرف بموقع ترناش الذي توجد به نقوش صخرية تشهد على أنه كان موطنا مفضلا للسكن مند فجر التاريخ (Côte, M. 1996: 95) (Modot, J. 1974: 282)، وغير بعيد عنها في الناحية الشرقية يوجد موقع أريرة المعروف محليا بخربة سبيبة حيث آثار رومانية منها بقايا حصن صغير ومعالم حمامات وخزانات ماء كانت تشكل في القرن الثالث الميلادي إحدى النقاط الحصينة في خط الدفاع الروماني المعروف بالليمس (Limes) (Shaw. 1968: 250-251) (Gsell, S. 1997: 1/33).

إن هذا الموقع الذي تتميز به قلعة بني سلامة جعلها موطن استقلال بشري في مواجهة قبائل الرحل المنتشرة في السهوب العليا الوهرانية، فهي منطقة انتقال بين مجال الزراعة ونطاق الرعي، ونقطة اتصال بين نمط حيلة الاستقرار وأسلوب حياة البداوة اللذين كان لهما حضور في نظرة ابن خلدون عن نوعية النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية

القائمة على مبدأ العصبية والناتجة عن تبادل المصالح بين المزارعين والبدو، وبين رؤساء العشائر والحكام المحلين.

لقد كان موقع قلعة بني سلامة (تاوغزوت) مند الفتح الإسلامي موطن تجمع لإحدى بطون زناتة التي كانت في معزل عن الصراع المذهبي والصراع القبلي بين زعماء الزناتة ورؤساء صنهاجة، والذي تحول إلى مواجهة حربية شهدتها بلاد المغرب من أجل الاستحواذ على مناطق النفوذ عقب سقوط الدولة الرستمية بتاهرت (296هـ- 908م) وتحدي الفاطميين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) لنفوذ الخلافة الأموية بالأندلس المعتمد على مناصرة زعماء القبائل الزناتية بالغرب الجزائري. بعدها تحولت قلعة بني سلامة أثناء حكم المرابطين ثم الموحدين للمغرب الأوسط (القرنان 5و6هـ) إلى ملجأ لبعض عشائر زناتة، ولعل هذا ما أبقى تاوغزوت (قلعة بني سلامة فيما بعد) بعيدة عن اهتمام المؤرخين والرحالة والجغرافيين الذين كتبوا عن المغرب الأوسط، فلا نجد لها ذكرا في كتبهم، ولم تعرف أخبارها إلا مع استقرار القبائل الهلالية بمناطق السهوب الوهرانية وسعي الحكام الزيانين بتلمسان لاستمالتها والاستعانة بها في صراعهم المرير مع الحفصين بتونس وبجاية والحكام المرينين بفاس ومراكش في القرنين السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي .

وأثناء ذلك أصبحت تاوغزوت ومنطقتها موطنا لقبيلة توجين المرتبطة بالولاء مع عشائر السويد الهلالية، الأمر الذي سمح لبعض العرب المنقطعين من سويد التوجه إليها واتخاذها رباطا يقيمون به قبل أن يتمكن رجال بني يدللتن من توجين بامتلاكها، وهذا ما شجع زعيمهم الشيخ سلامة بن نصر بن سلطان أن يتخذها مقرا له بعد أن اختط بها قلعة لتكون سكنا له فنسبت له وأصبحت تعرف بقلعة بني سلامة.

تحولت قلعة بني سلامة إلى سلطة ونزمار بن عريف بعد أن اقتطعها له السلطان المريني أبو عنان عند استلائه على المغرب الأوسط ومحاصرته لمدينة تلمسان (753هـ- 1352م) (ابن خلدون، ع. 1969: 245/7)، فاعتنى بها ابنه أبو بكر ابن عريف وبنى بها قصره الذي نزل به ابن خلدون، ولم تبق من آثار هذا القصر اليوم سوى بعض الكتل من الحجارة المتناثرة بعد أن تهدم وهجره سكانه إثر سقوط الدولة الزيانية (أواسط القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي) واشتداد الصراع القبلي على المراعي ونقاط المياه، ولم يعد يدل على قلعة بني سلامة سوى الاسم المحلي الذي أصبحت تعرف به وهو "تابراجت" التي تعني الأبراج باللهجة الزيانية، كما لم تبق من ذكريات إقامة ابن خلدون سوى بعض المغارات المشرفة على الحافة الصخرية التي تعلو وادي التحت والتي تذهب بعض الروايات الشفوية لبعض سكان المنطقة إلى أنها كانت مكان خلوة ابن خلدون

المفضلة أثناء إقامته بقلعة بني سلامة، كما غدت اليوم المكان المفضل للزوار الذين يريدون التعرف على موقع قلعة بني سلامة (Berque, J. 1970: 326) (Modot, J. 1974: 282).

لقد عرف ابن خلدون قبل إقامته بقلعة بني سلامة حياة مضطربة اشتغل خلالها بالوظيف، وعاش حياة الترف ببلاطات حكام بجاية وتلمسان وفاس وغرناطة، كما خبر فيها محنة السجن وتنكر الأصدقاء. فقد بدأت رحلته في الحياة، التي انتهت به إلى قلعة بني سلامة، عند مغادرته لموطنه تونس(755هـ- 1354م) مدفوعا بفورة الفتوة وطموح الشباب، فنزل تبسه ثم حط رحاله ببسكرة وأسند إليه وظيف الحجابة لحاكم بجاية وحاز منزلة مفضلة ببلاط الزيانيين بتلمسان وحاشية السلاطين المرينيين بفاس.

واظب ابن خلدون على حضور مجالس العلماء والتمرس على شؤون الحكم منذ شبابه الباكر، وهذا ما ساعده على استكمال ثقافته ونضج شخصيته وسمح له باكتساب الخبرة في تصريف شؤون الحياة. ومع تقدمه في السن لم يعد ينجذب إلى بريق السلطة ويتعلق بأبهة المناصب، واشمأزت نفسه من ظروف عصره المضطرب وواقع مجتمعه المغاربي، وداخله اليأس بعد أن تراجعت الحياة الحضرية بأقطار المغرب أمام اجتياح البداوة للمناطق الزراعية وتحول شرائح واسعة من سكان المدن على حياة التصوف في وقت كان فيه الحكام يتهافتون على تبوء المناصب الحكومية رغم فشلهم في وضع حد لحالة الفوضى والاضطراب وعجزهم عن الوقوف في وجه رؤساء العشائر الهلالية وزعماء القبائل الزناتية.

كل هذه الظروف جعلت عبد الرحمن ابن خلدون يحن إلى حلقات الدرس ويميل إلى الانعزال عن شواغل الوظيف والانقطاع للتفكير والعبادة والانغماس في الكتابة، فأصبح هذا الميل قناعة راسخة لديه إثر أن توترت علاقته مع صديقه لسان الدين بن الخطيب وبعد إن اضطر إلى مغادرة الأندلس للمرة الأولى تجنبا للحساد(766هـ- 1364م)، ثم للمرة الثانية بتدخل من رجال البلاط المر يني (776هـ- 1364م)، فحط رحاله في الأولى ببجاية وفي الثانية نزل ميناء هنين بالغرب الجزائري وهو متخوف من بطش سلطان تلمسان الزياني أبو حمو، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: "ونزلت هنين(مرسى تلمسان) والجو بيني وبين السلطان أبو حمو مظلم" (ابن خلدون، ع. 1969: 244/7). ولم يأمن غائلة السلطان أبي حمو إلا بعد أن توسط له شيخ أولاد عريف محمد بن عريف.

اطمأن ابن خلدون بعد أن التحقت به أسرته قادمة من فاس مع حلول عيد الفطر (776هـ/1374م). لكنه لم يهنأ بمقر إقامته بالعباد قرب تلمسان، فقد استدعاه مجددا السلطان أبو حمو للقيام بأمر الوساطة بينه وبين قبائل الذواودة لتوثيق التحالف معها في

صراعه مع الحفصين، فلم يجد بدا من تلبية الطلب ردا للجميل ودفعا لغائلة رجال الدولة الزيانية، وهذا ما أفصح عنه ابن خلدون بهذه العبارة: "عرض للسلطان أبي حمو أثناء ذلك رأي في الذواودة وحاجة إلى استمالتهم، فاستدعاني وكلفني السفارة إليهم في هذا الغرض، فاستوحشت منه ونكرته على نفسي لما آثرته من التملي والانقطاع، وأجبته في ذلك ظاهرا، وخرجت مسافرا من تلمسان" (ابن خلدون، ع. 1969: 245/7).

التحق ابن خلدون بعد مغادرته تلمسان بالبطحاء (غليزان الحالية) ومنها عدل عن السير إلى مواطن الذواودة بالشرق الجزائري، وتوجه جنوبا بعيدا عن تلمسان حيث أحياء أولاد عريف جنوب جبل كزول غرب تاهرت، فلقي الترحاب ووجد المساندة لدى شيوخ أولاد عريف الذين توسطوا له لدى السلطان أبي حمو حتى يصرف النظر عنه ويسمح بالتحاق أسرته التي تركها في تلمسان، فلم تمض أيام معدودة حتى التأم شمل أسرته مجددا وتوفرت له أسباب الراحة والهدوء بقلعة بني سلامة، وقد سجل ابن خلدون ذلك قائلا: "فالتحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول، فتلقوني بالتحفي والكرامة وأقمت بينهم أياما حتى بعثوا على أهلي وولدي بتلمسان، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته وأنزلوني بأهلي في قلعة بني سلامة من بلاد توجين التي صارت لهم بإقطاع السلطان" (ابن خلدون، ع. 1969: 245/7).

طابت إقامة ابن خلدون بقصر قلعة بني سلامة الذي وصفه بأنه: "من أحفل المساكن وأوثقها" (ابن خلدون، ع. 1969: 246/7)، فأقام به خمس سنوات متواصلة(776-780هـ- 1374- 1378م) يستعرض تجاربه ويتأمل واقع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالمغرب الإسلامي، فأمعن نظره في العلل المتحكمة في العلاقات الاجتماعية وأسلوب الحياة وطريقة العيش، وسجل ما انتهى إليه من آراء على اعتبارها مقدمة لما كان يعتزم الكتابة عنه من تاريخ المغرب الإسلامي.

حرص ابن خلدون بعد أن أنهى كتابة مقدمته في السنة الرابعة من إقامته بقلعة بني سلامة (منتصف عام 779هـ/1377م) على تصحيحها وتهذيبها، فواجهته مشكلة المصادر والمراجع، ومالت نفسه إلى الخروج من عزلته وإلى تجديد الصلة بالمناخ العلمي والحياة الاجتماعية، وهزه الحنين إلى زيارة مسقط رأسه ومرتع صباه مدينة تونس، فهيأ نفسه للرحيل متعللا بأن الأوراق التي اصطحبها معه إلى قلعة بني سلامة لم تعد كافية لكتابة تاريخه، وقد وصف حالته هذه في سيرته بقوله: "وتشوقت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار بعد أن أمليت الكثير من حفظي وأردت التنقيح والتصحيح" (ابن خلدون، ع. 1969: 246/7). لكن المرض يفاجئه ويضطره إلى قضاء السنة الخامسة طريح الفراش يعاني الآلام التي اشتدت به وكادت أن تقضي عليه، وهذا

ما عبر عنه بهذه العبارة: " ثم طرقني مرض أودى على الثنية، لولا تدارك من لطف الله" (ابن خلدون، ع. 1969: 246/7).

وما إن تعافى ابن خلدون من مرضه جهز نفسه للسفر مع أسرته إلى مسقط رأسه مدينة تونس، بعد أن تلقى جوابا من السلطان الحفصي أبي العباس أحمد (772-796هـ- 1370- 1394م) يستحثه على القدوم ويرحب بوفادته عليه. وكان ابن خلدون قد راسله في شأن قدومه إلى تونس وعلل ذلك بقوله: "فوجدت ميلا إلى مراجعة السلطان أبي العباس في الرحلة إلى تونس حيث قرار آبائي وسالفهم وآثارهم وقبورهم، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته والمراجعة، وانتظرت غير بعيد، وإذا خطابه وعهود بالأمان والاستحثاث للقدوم " (ابن خلدون، ع. 1969: 246/7).

غادر ابن خلدون مواطن أولاد عريف بقلعة بني سلامة مع حلول شهر رجب من سنة780هـ/1378م، فالتحق بعشيرة الأخضر إحدى بطون قبيلة رياح أثناء قدومهم إلى منداس للتزود بالحبوب، وصاحبهم في عودتهم إلى مواطنهم بالدوسن من أرض الزاب، وهذا ما سجله بقوله: "فكان الخفوف للرحلة فضعنت عن أولاد عريف مع عرب الأخضر رياح كانوا هناك ينتجعون الميرة بمنداس وارتحلنا وسلكنا المقفر إلى الدوسن من أطراف الزاب" (ابن خلدون، ع. 1969: 246/7- 247). وبعد هذه الحلة الطويلة نزل ابن خلدون بمضارب الشيخ يعقوب بن علي بالقرفار من أرض الزاب، ومنها انتقل إلى قسنطينة حيث مكث بعض الوقت عند أميرها الحفصي إبراهيم بن أبي العباس الحفصي الذي كفل له أسرته أثناء توجهه إلى تونس.

لم يطب المقام لابن خلدون بمدينة تونس، فقد تخوف منه رجال حاشية السلطان الحفصي أبي العباس أحمد، وعمل بعض رجال الحاشية على الكيد له وأظهروه لدى السلطان على أنه رجل داهية ومصدر دسائس ومؤامرات (حتي، ف. 1980: 339)، فلم يجد عبد الرحمن بن خلدون بدا والحالة هذه من مغادرة مسقط رأسه متحججا لدى السلطان بأداء فريضة الحج، وأبحر من ميناء تونس نحو الإسكندرية على ظهر إحدى سفن الحجاج ليصلها بعد خمسة وثلاثين يوما في البحر يوم 8 ديسمبر 1382م (784هـ).

لقد طوى ابن خلدون برحيله من بلاد المغرب واستقراره بالقاهرة صفحة مضطربة من حياته بأقطار المغرب عرف فيها أيام عزة وكانت مصدر إلهامه، لتتحول بقية سنوات عمره في دار الهجرة بمصر إلى حياة أحد رجال العلم الذين كانت تعج بهم مصر المملوكية، ولم يعد يربطه ببلاد المغرب سوى ذكريات انقضت وآمال انطوت وطموحات خبث. حاول الاشتغال بالتدريس وامتهان وظيفة القضاء، فتولى قضاء المالكية بالقاهرة خمس مرات، وأدى فريضة الحج، وأصبح من رجال الدولة المملوكية المقربين، فصاحب

السلطان برقوق(784- 801هـ) عند خروجه إلى دمشق أثناء تعرضها لهجوم تيومورلنك سنة 803هـ/1400م، فكانت له مقابلة مشهورة مع هذا الفاتح العظيم الذي قدر في ابن خلدون مواهبه وحسن تصرفه ورغبه في الانتقال معه إلى سمرقند، لكن ابن خلدون أحسن التملص من عرض تيمورلنك ليعود إلى القاهرة حيث وافته المنية سنة808هـ/1406م عن سن يناهز الخمسة والسبعين عاما.

لقد احتل ابن خلدون مكانة مرموقة في سجل التاريخ بعلمه وأفكاره، وأبقى ذكراه حية لدى الأجيال ومكانته محفوظة في سجل التراث الفكري العربي بما سجله من آراء ومفاهيم تاريخية ضمنها مقدمته، فأتى فيها بشيء جديد لم يسبقه إليه الكتاب السابقون ولم يحسن تقليده الكتاب المتأخرون، وهذا ما تنبه إليه ابن خلدون وأشار إليه بهده العبارة: "وشرعت تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها (أي قلعة بني سلامة) وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها" (ابن خلدون، ع. 1969: 7/245- 246).

إن الآراء الجديدة والمنهج المبتكر الذي أخد به ابن خلدون في مقدمته والذي تميز به من غيره من العلماء الذين سبقوه أو الذين أتوا بعده، يعود في نظرنا إلى تفاعل ثلاثة عوامل قلما اجتمعت لغيره من ذوي المعرفة، أولها يتعلق بثقافة ابن خلدون نفسه والتي تعتبر بحق حصيلة التراكم المعرفي لعصره والعطاء العلمي لبيئته بأصالتها المشرقية وحيويتها الأندلسية وعمقها المغاربي، وهذا ما يجعل من ابن خلدون النموذج المعبر عن الحضارة العربية الإسلامية بالمغرب في فترة بلغت فيها أوجها على عهد الموحدين وبدأت في التراجع والجمود بعد أن انقسمت بلاد المغرب إلى الدول الإقليمية التي حكمت من بعد انقسام دولة الموحدين (668هـ/1269م). ففي هذا الذي أعقب العصر الذهبي للثقافة المغاربية والذي عاش فيه ابن خلدون تم جمع التراث العربي الإسلامي بالمغرب وتمت المحافظة عليه بفضل حلقات الدروس ومجالس العلم بتونس وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش وغرناطة، هذه الحلقات التي ظلت لفترة طويلة منارات علم ومعرفة وأماكن إسهام وعطاء للثقافة العربية الإسلامية ببلاد المغرب.

أما العامل الثاني فهو حنكة ابن خلدون وخبرته بأمور الحياة وتجربته العملية في ممارسة الوظائف السلطانية والقيام بالمهام الإدارية ببجاية وتلمسان وفاس، وهذا ما جعله يتجاوز الرؤية المحدودة والنظرة القاصرة والموقف الذاتي في فهمه لواقع الحياة وتحليله للظواهر الاجتماعية المتحكمة في المجتمع المغاربي والتي أحسن التعبير عنها بمصطلح "الاجتماع الإنساني " (Lacoste, y. 1980). فقد أكسبته خدمته لحكام بجاية وتلمسان

وتعامله مع حكام فاس وغرناطة وارتباطه بصداقة عميقة مع شيوخ القبائل العربية بالمغرب الأوسط من بني مزني ببسكرة وحتى أولاد عريف بقلعة بني سلامة خبرة وتجربة كانت نعم العون له في تحديد علل الأحداث التاريخية وفهم تطور المجتمع.

ويتمثل العامل الثالث في تأثر ابن خلدون بالبيئة المغاربية وخاصة منها الشروط الطبيعية والواقع البشري السائد بالمغرب الأوسط (الجزائر)، فكان لهذا الوسط تأثير على مزاجه الشخصي وعلى توجهاته الفكرية. ومما يؤكد الحضور الجزائري في فكر وعطاء ابن خلدون كون جل الأحداث المهمة التي عاشها في حياته قبل هجرته إلى المشرق ارتبطت بالبلاد الجزائرية منذ قدومه إلى تبسة عام *755هـ/1354م* وحتى مغادرته قسنطينة سنة *780هـ/1378م*، و أن أغلب ملاحظاته عن المجتمع والسلطة والاقتصاد استقاها من واقع الحياة في المغرب الأوسط (الجزائر)، فلاحظ في هذه البيئة تباين أسلوب العيش واختلاف السلوك والمعاملة بين سكان الحواضر وخاصة بجاية وتلمسان وقسنطينة، وبين أهالي الريف بالمناطق الساحلية حيث ظل أغلب السكان يشتغلون بالزراعة، وبين العشائر البدوية بالهضاب العليا وأطراف الصحراء، فلمس في هؤلاء البدو الغلظة التي أوقعته في مشاكل معهم حيث تعرض للتعنيف والضرب في سوق بسكرة وجرد من ملابسه ونهب متاعه عندما كان متوجها من مدينة تلمسان نحو فاس، كما عرف فيهم الشهامة والأريحية والإخلاص، فطابت إقامته لدى شيوخ بني مزني بالزيبان ورياح وأولاد عريف بقلعة بني سلامة.

إن العوامل التي سبقت الإشارة إليها تؤكد لنا أهمية دراسة التوجهات الفكرية الخلدونية انطلاقا من رصيد ثقافة ابن خلدون وحصيلة خبرته وتأثره ببيئته، بحيث لا نكتفي بعرض الأحداث في سياقها التاريخي ومناقشة الأفكار والمفاهيم في إطارها النظري فقط، كما هو ملاحظ اليوم في اغلب الدراسات المتعلقة بابن خلدون والتي يكاد يقتصر اهتمامها على العرض التاريخي والتعليق النظري بعيدا عن تحليل الدوافع النفسية والظروف المعيشية والثقافية التي كانت سائدة في حواضر المغرب العربي (الوردي، ع. *1977*). وهذا ما تسبب في القصور الملاحظ في تعاملنا وفهمنا للنظريات الخلدونية، فأصبحت نظرتنا لهذا الفكر - لسوء الحظ- لا تتجاوز المعطيات النظرية بعيدا عن الظروف التاريخية التي أفرزتها في معزل عن البيئة التي أوجدتها، رغم كون الفكر الخلدوني كما عبرت عنه المقدمة، إسهاما إنسانيا خالدا يعكس خبرة ومعرفة بواقع المجتمعات الحضرية والبدوية بالمغرب الإسلامي.

وفي هذا الصدد لا يفوتنا أن نلاحظ أن منطلق الفكر الخلدوني والإطار المحدد لنظريته في مجال علوم التاريخ والاجتماع والسياسة يكمن في دراسة مجتمع المغرب

الأوسط وتحليل الواقع الذي عاشه ابن خلدون بقلعة بني سلامة لكونها المخبر الذي رصد فيه ملاحظاته انطلاقا من الشروط الطبيعية ومتطلبات الحياة اليومية القائم على جدلية الصراع بين نمط الاستقرار وممارسة الزراعة وبين أسلوب البداوة ومزاولة الرعي.

لقد كانت منطقة قلعة بني سلامة البيئة المثالية لتشكل العصبية القبلية القائمة الساعية لاكتساب النفوذ وحيازة الثروة، وهذا ما جعل ابن خلدون يقتنع بأن ممارسة السلطة أساسها قوة العصبية سواء بالنسبة لشيوخ العشائر العربية أو زعماء القبائل الزناتية أو حكام تلمسان الزيانية، مادامت شروط البيئة وطبيعة العلاقات الاجتماعية هي التي تفرض رابطة العصبية وتحدد موازين القوى بين الحاكم والمحكوم وبين الممارسة الفعلية للسلطة والسعي الحثيث للحصول عليها (باتسييفا، س. *1988*) .

ولعل هذا ما جعل قلعة بني سلامة مقصد المستشرق الفرنسي أو غستن بيرك وابنه جاك بيرك الذين وقفا بها مرارا متسائلين عن مدى ارتباط موقعها بخصوصية الفكر الخلدوني وتأثيرها على ملاحظات ابن خلدون حول العلاقة بين حياة الاستقرار والبداوة (Berque, J. 1970: 326) (Berque, A. 1986: 268)، لأن قلعة بني سلامة من حيث شروط النظر الجغرافية والاجتماعية تمثل البيئة المثالية لتفاعل أسلوبين مختلفين من حيث نمط العيش وطريقة الحياة، فالفلاحون بالجهات الواقعة إلى الشمال كانوا في مواجهة زحف القبائل الهلالية والعشائر الزناتية القادمة من السهوب الواقعة إلى الجنوب، للاستحواذ على المزيد من المراعي الخصبة الواقعة في الشمال حيث تشكلت الأحلاف القبلية في مواجهة نفوذ حكام تلمسان.

وفي ختام هذه الكلمة لا يفوتنا أن نلاحظ أن ابن خلدون ما كان في استطاعة أن يكتب مقدمته لولا رجوعه لنفسه وانقطاعه للتأمل في قلعة بني سلامة بأرض المغرب الأوسط (الجزائر). وهذا ما يجعل المقدمة بحق حصيلة الثقافة التي اكتسبها والتجارب التي عاشها والمجتمع الذي تأثر به، فظلت إنجازا متميزا لم يرق ابن خلدون إلى مستواه فيما سجله من أحداث في تاريخه (كتاب العبر)، بعد أن افتقد برحيله من قلعة بني سلامة الهدوء العقلي والحافز النفسي، ولعل هذا ما يفسر تباين المقدمة وكتاب العبر، فالمقدمة تتميز بوضوح النظرة والعمق والسمو في طرح قضايا التاريخ، بينما كتاب العبر يغلب عليه العرض والوصف والرواية، وهذا ما يجعل ابن خلدون مجددا في التحليل التاريخي ورائدا في طرح القضايا في المقدمة، بينما هو ناقل ومسجل لأخبار العرب بالمشرق ومدون وراو ومتتبع لأحداث البربر في كتاب العبر (سعيدوني، ن. 1999: 216). فالمقدمة تعبر عن جانب الإبداع وتظهر عبقرية ابن خلدون، وهذا ما عبر عنه محمد عبد

الله عنان بقوله "لو خير الخلف بين إنقاذ المقدمة مع التضحية بستة أجزاء أخرى، فإننا لانتردد في التضحية بهذه الأجزاء الستة " (عبد الله عنان، م. 1965: 296).

المراجع والمصادر

(أ) باللغة العربية:

ابن خلدون، أبوزيد عبد الرحمان. (1969). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء السابع. بيروت: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.

باتسيقا، سفتيلا. (1988). العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمة رضوان إبراهيم. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حتى، فليب. (1980). صانعو التاريخ العربي، ترجمة أنيس فريحة. بيروت: دار الثقافة.

سعيدوني، ناصر الدين. (1999). من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

عبد الله عنان، محمد. (1965). ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ط 30. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

محسن عيسى مال الله، علي.(1978). أدب الرحلات عند العرب في المشرق، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن عشر. بغداد: مطبعة الإرشاد.

الوردي، على. (1977). منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته. تونس.

(ب) باللغة الأجنبية:

BERQUE, Augustin. (1986). *Ecrits sur L'Algérie*. Aix-en- provnce, Paris: Edisut.

BERQUE, Jacques. (1970). *Lorient second* (les Essais). Paris: Gallimard.

Carte de l'Algérie. (1922). Type 1/50.000 (Frenda).

COTE, Marc. (1996). *Paysage et patrimoine* (guide de l'Algérie). Constantine: Media plus.

MODOT, J. (1974). *Algérie* (guide bleu) Paris: hachette.

GSELL, Stéphane. (1997). *Atlas archéologique de l'Algérie*, 2éme Ed, T.I. Alger: (texte), feuille 33 (Tiaret), N 35.

LACOSTE, Yves. (1980). *Ibn khaldoun, naissance d'une histoire passée du tiers-monde*. Paris: Maspero.

SHAW Dr, (1968). *Voyage dans la régence d'Alger*, trad. De l'anglais par J. Mac Carthy ; 2éme éd. Tunis: Bouslama.